الخـوارج في الانـدلـس

تمهيـد :

ولد حزب الخوارج بعد وقعة صفين بين علي بن ابى طالب رضى الله عنه ومعاوية بن ابى سفيان ، حينما اختلف أصحاب علي على قبول التحكيم، فقد رأى البعض ان من الخطأ ان يحكم احد فى كتاب الله ، فان ذلك يتضمن شك كل فريق من المحاربين أيهما المحق ، وهذا ما لم يقبلوه اذ أنهم حاربوا وهم مؤمنون أن الحق بجانبهـم . وهكذا انشقوا على علي و«خرجـوا» عليه مؤلفين حزبا ثالثا يعارض كلا الحزبين المتقاتلين : العلوى والاموى.

وكان الخوارج يرون ان تكون الخلافة او الامامة من حق كل مسلم وان تكون بمبدأ الانتخاب الحر ، فهم بهذا الشكل يمثلون نظريـة الجمهوريـة الديموقراطية الى ابعد الحدود ، وقد إخلصـوا لمبادئهـم هـذه اخلاصـا شديدا واستماتوا فى الدفاع عنها ، وحاربوا الحكومـة الامويـة باستقـال وبسالة حتى كانوا فيما بعد من اهم عوامل سقوطها .

وقد كانت نظريتهم فى الخلافة وشرطهم فيها الاسلام والعدل ـ بدل العروبة والحرية ـ مما جعل لحركتهم صبغة مضادة للحكم العربى ، وهو ما دفع كثيرا من «الموالى» الذين كانوا يلاقون أشد الاضطهاد ـ مـن العصبيـة الاموية للعرب ـ الى الاقبـال على هـذه الدعوة الديموقراطية المستندة الى مبدأ اسلامي محض يقـوم على التسويـة بين جميع المسلمين أيا كان لونهم أو أصلهم .

نشاط الدعوة الخارجية بين أوساط البربر :

واذا ذكرنا ان فتح الاندلس تم على أيدى العرب والبربر ، وأن النزاع على توزيع الارض والغنائم بين الفاتحين لم يلبث ان نشب بين الفريقين ، استطعنا ان نتصور مدى ما يمكن ان تلاقيه الدعوات الخارجية من نجاح فى الاوساط البربرية . وقد عرف الدعاة الخوارج كيف يستغلون سخط البربر فى شمال افريقية حيث انتشر المذهب الاباضى بسرعة ، وكانت المعاملـة السيئة التى لقيها زعماء البربر وعلى رأسهـم ميسـرة المدغـرى المعـروف بالحقير عندما ذهبوا يتظلمـون الى الخليفـة الامـوى هشام بن عبـد الملك بالشام ـ عاملا مباشرا دفعهم الى ثورة عاتية فى افريقية فى سنة 121 (739م.)، فسار ميسرة الحقير الى طنجة فقتل عاملها عمر بن عبـد الله المـرادى ، ثم

ادعى الخلافة وبويع بها (١).

وقد كان للانتصارات التي سجلها هذا الثائر الخارجي صدى قوي في الاندلس ، فثار البربر على العرب بهذه البلاد ، وانتخبوا من بينهم إماما نصبوه عليهم،وأخرجوا عرب جليقية وفتكوا بهم في سائر نواحي الاندلس(٢). ومن الممكن ان نفترض ان هذه الثورة صحبها انتشار للتعاليم الخارجية في بلاد الاندلس . ويدلنا على ذلك ان صاحب «الاخبار المجموعة» يذكر ان هؤلاء الخوارج كانوا يحلقون رؤوسهم مثل فعل الازارقة (٣) كما أنهم كانوا يرفعون المصاحف ويهتفون بشعار الخوارج المعروف في المشرق وهو «لا حكم الا لله» ، على ان صاحب «الاخبار» يذكر في موضع آخر (٤) أن هؤلاء البربر كان معظمهم على رأي الاباضية والصفرية. على أن الارجح أن هذه الحركات لم تتميز بلون اباضي أو صفري واضح ، والاسلم أن يطلق على القائمين بها اسم «خوارج» بمدلوله الواسع العام(٥).

الثورات الخارجية في عهد امراء بني أمية :

على أنه بعد استقرار الامر لبني أمية في الاندلس ، ضعف أمر الدعوات الخارجية بهذه البلاد، ولعل ذلك يرجع لخمود جذوة الخوارج في سائر

---

١) انظر خبر ثورة ميسرة الحقير في شمال افريقية : الدكتور حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب (ط. القاهرة سنة ١٩٤٧) ص ٢٩١ وما بعدها ، وانظر كذلك مقال الدكتور مؤنس ثورات البربر في افريقية والاندلس بين سنتي ١٠٢ ـ ١٣٦ (٢١$_{٧}$ ـ ٧٥٣ م.) في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة (مايو ١٩٤٨) ص ١٦٨ والمراجع المذكورة في هذين البحثين .

٢) انظر أخبار مجموعة ص ٣٨ والمقري : نفح الطيب ١٩/٤.

٣) الازارقة هم فرقة من الخوارج تنتسب الى نافع بن الازرق ، وتعتبر اكثر فرق الخوارج تطرفا فهم يكفرون من عداهم من المسلمين ويستبيحون دماءهم وقتل نسائهم واطفالهم ـ راجع البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٦٢ ـ ٦٦

٤) ص ٢٨

٥) شك الدكتور حسين مؤنس في نسبة هذه الثورات البربرية الى الصفرية او الاباضية خاصة ، وعلل ذلك بان هاتين الفرقتين هما اكثر الخوارج اعتدالا وتسامحا مما يتنافى مع ما اتسمت به ثوراتهم من عنف وتطرف (انظر ثورات البربر في افريقية والاندلس ... ص ١٥٥).

العالم الاسلامي بصفة عامة ، وتكاد الحركات الخارجية في الاندلس تنحصر في ثورتين : حدثت اولاهما في الجزيرة الخضراء في ايام الحكم الربضى(١). وقد كتب الشاعر عباس بن ناصح الثقفى قاضى الجزيرة الخضـراء الـى الحكم يستحثه الى اخماد هذه الثورة ، وفعلا عجل الحكم بذلك فاسرع الى الجزيرة ، وحمل السيف على اكثر اهلها .

وفي سنة ٢٠٠ (٨١٥ ـ ٨١٦) ظهر خارجي آخر بين بربـر موروز MORÓN ولكن الحكم بادر ايضا بالقضاء على هذه الثورة (٢)

حكم الفقهاء المالكيين على الخوارج :

وجدير بالاهتمام في هذا الشأن ان نذكر آراء السلطات الدينيـة فـي الاندلس فى تلك النزعات الخارجية . وقد كـان رأى الفقهـاء المالكييـن الاندلسيين مسايرا لنشاط الدولة السياســي ، اذ انهـم كانـوا يعتبـرون «الخارجية» تهمة يحاكم عليها . وقد احتفظ لنا القاضي عياض بآراء المتقدمين من هؤلاء الفقهاء : فهو ينقل عن عيسى بن دينار الطليطلى (ت ٢١٢/٨٢٧) ان الذي يعتنق الاباضية حكمه كحكم المرتد : يستتاب من مقالته فان تاب والا قتل (٣) . اما عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨/٢٥٨) فقد كان اكثر تطرفا، اذ رأى او حكم الاباضي كحكم الكافر ، أى انه يقتل بغير استتابة (٤).

على انه برغم هذه الاحكام فان المراجع لم تحتفظ لنا بخبر عن محاكمة احد الخوارج في هذه الفترة .

علاقات الاندلسيين بالدول الخارجية فى المغرب :

واذا كان الامويون بالاندلس لم يتسامحوا مع البـدع الخارجيـة فـي حدود بلادهم فان الظروف السياسية قضت عليهم بان يرتبطوا بصلة الصداقة مع الامارات الخارجية التي كانت تجاورهم في شمال افريقية . واهم هـذه الامارات هي الدولة الرستمية في تاهرت بالمغرب الاوسط . وصلة الامويين بالرستميين قديمة ، فهى تبدأ منذ استجار عبد الرحمن الداخـل مؤسس

---

١) لم يحـدد ابن القوطية ـ وهـو الذى ينفرد بذكر هذه الثورة ـ تاريخ قيامها ، الا انه يذكر ان ذلك كان بين وقعة الحضرة ووقعة الربض بين (١٨١ و ١٨٩ هـ. = ٧٩٧ ـ ٨٠٤م.). انظر تاريخ افتتاح الاندلس ص ٤٩

٢) انظر ابن الاثير : الكامل ٥/١٨٠

٣) الشفا بالتعريف بحق المصطفى ٢/٣٧٢

٤) نفس المرجع ٢/٤٧٢

الامارة الاندلسية ببني رستم عند هربه من العباسيين فى المشرق(١). وقد حفظ عبد الرحمن هذه اليد لاولئك الخوارج . ومنذ ذلك الوقت كانت سياسة الامويين التقليدية تقوم على حماية هذه الامارة الصغيرة وامدادها بالمساعدة. وقد كان ذلك طبيعيا ، فان امارة الرستميين كانت تقع بين جارين قويين يجاهرانها بالعداء : ففى الشرق تقع دولة الاغالبة السنية التى تدين بالدعوة العباسية ، وعن الغرب تقع دولة الادارسة العلوية ، وكانت الاندلس الاموية عدوا طبيعيا لكلتا هاتين الدولتين ، فاتجهت سياستها الى كسب صداقة الرستميين على رغم مخالفتهم لهما فى المذهب والعقيدة . وفى سنة ٢٠٧ (٨٢٢) أرسل عبد الوهاب بن رستم ابناءه الثلاثة فى سفارة رسمية الى قرطبة ، وكان يوم استقبالهما يوما عظيما مشهودا (٢). وقد تبع ذلك ان استعان عبد الرحمن الاوسط بكثير من رجالات الرستميين وقوادهم فى الاندلس نفسها . وتحدثنا كتب التاريخ ان عبد الرحمن حينما انتصر على المجوس (النورمانديين) فى سنة ٨٤٤/٢٣٠ بادر بابلاغ نبأ ذلك النصر الى حليفه الرستمى أفلح بن عبد الوهاب صاحب تاهرت(٣). كذلك يذكر المؤرخ المشرقى ابن جابر البلاذرى ان أفلح خرب مدينة بناها محمد بن الاغلب وسماها «العباسية» تقربا بذلك الى الامير الاموى ، فكافاه هذا بأن أرسل اليه مائة ألف درهم (٤).

وقد سارت الخلافة الاموية على هذه السياسة بعد ذلك لا سيما حينما قويت الدولة الفاطمية فى شمال افريقية ، فنحن نرى عبد الرحمن الناصر يؤيد الثائر الخارجى أبا يزيد مخلد بن كيدار المعروف بصاحب الحمار حين

---

١) انظر المقرى : نفح الطيب ٢٨/٤

٢) انظر ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية ٢٤٤/١ ـ ٢٤٥ (معتمدا على نص لابن حيان فى المقتبس) وكذلك ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ٤٨/١ ؛ وبحثا للاستاذ محمد بن تاويت عن دولة الرستميين (تحت الطبع فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ـ المجلد الخامس سنة ١٩٥٧)

٣) انظر ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية ٢٢٤/١

٤) فتوح البلدان ص ٢٣٦

قام بالثورة على الخليفة الفاطمي «القائم بامر الله» . وفي سنة ٣٣٤ (٩٥٤) أرسل أبو يزيد هذا سفارة الى قرطبة استقبلها عبد الرحمـن بالحفـاوة والترحاب ، ثم ردها محملة بالهدايا ، وقد كتب أبو يزيد ازاء ذلك الـى عبد الرحمن يعترف بامامته (١).

اثر العقائد الخارجية في الاندلس :

وطبيعي ان هذه الصلات الوثيقة بين الاندلس الاموية والامارات الخارجية في الشمال الافريقي كان ينبغي ان تترك آثارها في الشعب الاندلسي . وطبيعي كذلك ان نتوقع ان هذه الاثار كانت ضئيلة على اية حال ، فسيطرة العقيدة السنية المطلقة على الاندلسيين لم تكن تدع مجالا لمثل هذه البدع الخارجية لان تاخذ سبيلها الى التسرب في عقيدة الاندلسيين .

على انه رغم ذلك فقد وجدت في الاندلس نزعات خارجية من احتكاك اهل هذه البلاد بجيرانهم في شمال افريقية . وتحدثنا كتـب التاريـخ ان اندلسيا من اهل وشقة Huesca يدعى عبد الرزاق الفهـري رحـل الى المغرب الاقصـى في منتصـف القرن الثالـث الهجـرى حيث دان بالمذهب الخارجي ، بل انه نصب نفسه اماما لفرقة منهم ، وما لبث ان ثار في جبال سلا على المحيط الاطلسي على الاميـر الادريسي على الثاني بـن عمر ، واستطاع ان يحتل «فاس» حيـث اسرع الـى الخطبة باسمـه اهل العـدوة الاندلسية. ويدلنا هذا على انه كان متمسكا بقوميته الاندلسية متعصبا لها. كما يدلنا على ذلك ايضا بناؤه قلعة منيعة بجبال سلا سماها باسم موطنه الاول ، وشقـــة (٢).

ومن آثار الخارجية في العقائد الاندلسية ما يذكره المؤرخ الرازى من ان احد المعلمين بقرطبة هو جابر بن غيث الليلي ـ وكان يعلم ابناء الوزير هاشم بن عبد العزيز ـ كان كثير التشدد في الدين حتى انـه كـان في صارمته يقارب الاباضية (٣).

ويذكر المستشرق الاسباني فرانسسكو كوديرا ان أيوب بن سليمان القوطي (ت ٣٢٦هـ/٩٣٧م) ـ وهو حفيد للكونت يوليان الذى تم على يديه فتح الاندلس ـ ادخل الى الاندلس كتب الخوارج ، ولكن ليس لدينا ما يثبت

---

١) انظر ليفي بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية ٢/١٠٣ـ١٠٤

٢) انظر خبره في ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٤٧ (تحقيق كارل تورنبرج Carl Torenberg ـ ط. ابساله سنة ١٨٤٣)

٣) انظر ترجمة جابر بن غيث في : ابن الابار : التكملة ترجمة رقم ٥٣٠ ، ص ٤٤٥ وابن الفرضي ترجمة ٣١٢ والسيوطي : بغية الوعاة ص ٢١٠

هذا الرأى(١).

على ان الاخذ بالمبادىء الخارجيـة بقى تهمـة يتعرض المتلبس بهـا لاقسى العقوبات . وفى اواخر ايام الدولة الاموية نجد فقيها مشهورا هو ابو عمر الطلمنكى (ت ٤٢٩هـ./١٠٣٧م.) يتهم فى سنة ٤٢٥ هـ. بانه خارجـى سافك للدماء يرى وضع السيف فى صالحى المسلمين ، على ان هـذه التهمـة لم توجه اليه لاعتناقه عقيدة خارجية صريحة بل لشدته وصرامته فى الحكم على فقهاء عصره المالكيين لتحجرهم وجمودهم . وقد حوكم لذلـك بتهمة الخارجية فى سرقسطة ، وشهد عليه بها خمسة عشر فقيها مـن اكبر فقهاء عصره ، على انه برىء من ذلك بفضل قاضى سرقسطة محمد بن عبد الله بن فرتون (٢) .

ويبدو ان كثيرا من البربر الذين اشتركوا فى فتح قرطبة وعملوا على تخريبها فى ايام «الفتنة البربرية» كانوا من المتأثرين بالمبادىء الخارجية . وليس ذلك غريبا اذا قدرنا انه فى اواخر ايام الدولة العامرية كثرت هجرات القبائل البربرية الى الاندلس بحكم استعانة المنصور بن ابى عامر وخلفائه بهم فى حروبهم الكثيرة ، وقد تسربت الى الاندلس عن طريق هذه الهجرات كثير من المعتقدات الغريبة التى لم تعرف فى هذا القطر ايام الخلافة الاموية. وكان من بين هذه المعتقدات ما كان شيعيا سفر عن وجهه حينئذ (٣) ، وكان من بينها كذلك نزعات خارجية كان لابد ان تنتقل الى الاندلس من شمال افريقية حيث لقيت انتشارا واسعا . ويدلنا على ذلك ما يذكره ابن الابار فى ترجمة احد كبار موظفى الدولة الاندلسيين من انه قتله «خوارج البربر» حين

---

(١) انظر Francisco Codera: Estudios Criticos sobre la Historia árabe española, T IX, 1017, P. 341.

وكذلك نفس المؤلف فى مجلة المجمع التاريخى الملكى :

Boletin de la Real Academia de la historia T. XXI, P. 496.

ورأى كوديرا يستند الى تفسير خاطىء لـ «الكتب العراقية» التى يذكر ابن الفرضى فى ترجمة ايوب بن سليمان المذكور (رقم ٢٦٨) انه ادخلها الى الاندلس . وابن الفرضى انما يعنى كتب الفقه العراقية ويخص من ذلك كتب الفقه الحنفى الذى كان يطلق عليه فقه اهل العراق.

(٢) فى ترجمة ابى عمر الطلمنكى راجع ابن بشكوال : الصلة ت.٩٠. وفى اتهامه بالخارجية انظر ابن الابار : التكملة ت ٤٢٥

(٣) انظر بحثنا عن «التشيع فى الاندلس» فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد سنة ١٩٥٤ ص ١٢٧ رقم ١

فتحوا قرطبة سنة ٤٠٣ هـ. (١).

والواقع ان الحرية الفكريـة التي تمتع بها الفكر الاندلسي بعد انهيار الخلافة الاموية كان لها أعظم الاثر في عودة كثير من العقائد الخارجية الى الظهور دون ان تتعرض للاضطهاد او التعقب، فوجد بعد ذلك من اهل الاندلس من كانوا ينتحلون مذهب الخوارج في صراحة . ويذكر ابن الخطيب (٢) في حديثه عن محمد بن عبد الله البرزالي امير قرمونة Carmona وابنه اسحق انهما كانا معروفين « باشتهارهما بالنكوب عن الجماعة واعتقادهما بمذهب الناكرين من فرق الاباضية الخوارج يستأثران بذلك هما وقومهما من بني برزال ، اعمالهم واقوالهم في ذلك معروفة »

وهناك مثل آخر يذكره ابن حزم ، ذلك هو قريـة بلفيـق Valefique في منطقـة المريـة Almeria التي كان اهلها علـى مذهب الخـوارج لا يستترون (٣). وفي موضع آخر يتحدث ابن حزم بتفصيل عن عقائد بعض من شاهده واتصل به من خوارج الاندلس ، وهو يصرح بذكر اسم رئيسهم «ابي اسماعيل البطيحي» الذي كان من الازارقة الا انه أربـى وزاد عليهم ، ويقول ان من الشرائع التي سنها لاصحابـه تخفيض عدد ركعـات الصـلاة وتحريم اكل السمك حتى يذبح ، وجواز الحج في جميع شهـور السنـة ، وعدم اخذ الجزية من المجوس ، وتحريم طعام اهل الكتاب ... الى غير ذلك مما يدرجه ابن حزم في باب «ذكر شنع الخوارج» من كتابه الفصل (٤). وينص ابن حزم على انه ناقش بعض الاباضية ـ وهم الغالبون على خوارج الاندلس، فسألهم عن امامهم في علمهم ومذهبهم فلم يدلوا اليه بخبـر كاف عن ذلك.

---

١) هو عبد الله بن حسين المعروف بابن الغربالـي القرطـبي ـ ترجمته في التكملة رقم ١٢٧٧

٢) أعمال الاعلام (نقلا عن ابن حيان) ص ٢٣٧

٣) نقط العروس (حسب ما نقله عنه ليفي بروفنسـال : تـاريخ اسبانيا الاسلامية ١/١٦١)

٤) انظر الفصل في الملل والاهواء والنحل ٤/١٨٩ـ١٩١ وانظـر الترجمة الاسبانية له: Asin Palacios : Abenházam de Córdoba y su Historia Crítica de las Ideas Religiosas, V, P. 73.

وانظر كذلك Asin Palacios: Ibn Masarra y su escuela (en Obras escogidas, I, P. 23)

مــراجــع البـحــث

مراجـع عربيـة :

ابـن الابــار : (ابو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى)
التكملة لكتـاب الصلة (المجلدان الخـامس والسادس مـن المكتبـة الاندلسية ـ نشر الاستاذ فرانسيسكو كوديرا ـ مدريد ١٨٨٧ـ١٨٨٩)

ابـن ابـى زرع :
الانيس المطرب بـروض القرطـاس (تحقيـق كـارل تورنبـرج ط أبساله سنة ١٨٤٣)

ابـن الأثيـر : (على بن احمد بن ابى الكرم)
الكامل فى التاريخ (ط. القاهرة ١٣٤٨ ـ ١٣٥٣هـ.)

اخبار مجموعـة :
لمؤلف مجهول ـ نشر لافونت الكنترا ط. مدريد ١٨٦٧

ابـن بشكـوال : (أبو القاسم خلف بن عبد الملك)
الصلة فى تـاريخ ائمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وادبائهم ـ المجلدان الاول والثانى من المكتبة الاندلسيـة ـ تحقيق فرانسيسكـو كوديرا ـ ط. مدريد ١٨٨٢ ـ ١٨٨٣ .

البـغــدادى : (عبد القادر بن طاهر)
الفرق بين الفرق ـ ط. القاهرة سنة ١٩١٠

البـلاذرى : (أحمد بن يحيى بن جابر)
فتوح البلدان ـ ط. القاهرة سنة ١٩٣٢

ابـن حـزم : (أبو محمد على بن سعيد بن حزم)
الفصل فى الملل والاهواء والنحل ط. القاهرة سنة ١٣١٧

ابن الخطيب : (لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد السلمانى)
أعمال الاعلام (نشر ليفى بروفنسال ـ بيروت سنة ١٩٥٦)

ابـن سعيـد : (على بن موسى بن عبد الملك بن سعيد المغربى)
المغرب فى حلى المغرب (نشر الدكتور شوقى ضيف ـ القاهرة ١٩٥٢

السيوطى : (جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر)
بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ـ ط. القاهرة سنة ١٣٢٦هـ.

القاضى عياض : (ابو الفضل عياض بن موسى السبتى)
الشفا فى التعريف بحق المصطفى ـ ط. القاهرة

ابن الفرضى : (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف)
تاريخ علماء الاندلس (المجلدان السابع والثامن من المكتبة الاندلسية نشر فرنسيسكو كوديرا ط. مدريد ١٨٩٠

ابن القوطية القرطبى : (أبو بكر محمد بن عبد العزيز)
تاريخ افتتاح الاندلس ـ نشر خوليان ربيرا مدريد ١٨٦٨

المقرى : (احمد بن محمد المقرى التلمسانى)
نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (عشرة اجزاء نشر الشيخ محيى الدين عبد الحميد ـ القاهرة سنة ١٩٤٩)
بحث الاستاذ محمد بن تاويت عن دولة «الرستميين».

مراجع أوربية :

M. ASIN PALACIOS: **«Ibn Masarra y su escuela»** (en «Obras Escogidas», t. I. Madrid, 1946).
«Abenházam de Córdoba y su Historia Crítica de las Ideas Religiosas», Madrid, 1927-1932.

FRANCISCO CODERA: **«Estudios críticos sobre la historia árabe española»**, t. IX, Zaragoza, 1917.

E. LEVI-PROVENÇAL: **«Histoire de l'Espagne Musulmane»** (Paris-Leyden, 1950).